نور الدين محمود في شعر معاصريه

د. أحمد فوزي الهيب

مثلما ينبلج الفجر من كبد الظلماء، ليملأ الدنيا نورًا وضياء، انبلج نور الدين محمود، كما انبلج قبله أبوه عماد الدين زنكي، وبعده صلاح الدين الأيوبي، انبلجوا من ظلمة الهزيمة والقهر والذل والاحتلال الفرنجي الذي سمَّاه أصحابه (الصليبي)، انبلج ليهزم الفرنجة، ويكسر أسطورتهم، ويحرِّر البلاد، ويوحدها تمهيدًا لتحرير القدس والمسجد الأقصى.

لن أتحدث عن نور الدين محمود كما تحدَّث عنه المؤرخون، إلا بالقدر الذي يساعد في فهم الأشعار التي تحدثت عنه راجيًا أن تستطيع رسم صورته المشرقة، أو رسم بعضها، لتوفِّيَهُ بعض حقه على البلاد وأهلها وحضارتها وكرامتها وتحريرها.

هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر التركي، ولُقّب (زنكي) أيضًا بلقب والده، كما قيل له (ابن القسيم)[1].

ولد سنة (٥١١هـ(ونشأ في كفالة والده صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان، وتعلم القرآن والفروسية والرمي، وكان شهمًا شجاعًا ذا همة عالية وقصدٍ صالحٍ وحرمة وافرة وديانة بيِّنة[2]. لذلك قدَّمه أبوه على أبنائه الآخرين

(1) الروضتين في أخبار الدولتين (٩/١).

(2) البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٧).

لما رآى فيه من مخايل النجابة[١].

كان نور الدين معتدل القامة أسمر اللون واسع الجبهة حسن الصورة ذا لحية خفيفة[٢]، قويًا رياضيًّا رشيقًا سريع الحركة فارسًا شجاعًا.

تولى المُلْكَ بعد استشهاد أبيه أمام أسوار قلعة جعبر[٣]، عام (٥٤١هـ(، والذي سار ببلاد الشام والجزيرة مرحلة كبيرة في طريق التحرير والتكتل والتوحيد منذ أن تولى إمارة الموصل سنة (٥٢١هـ([٤].

اتخذ نور الدين محمود حلب عاصمة له، فأصلح أحوالها وبنى فيها المدارس والرباطات، وجلب أهل العلم والفقهاء إليها [٥]، وأظهر العدل، وأبطل البدع، وحصّن الأسوار، وعُني بالزراعة والتجارة وطرقها، وأمر ببناء الأبراج والخانات[٦]، ورتب الخفراء في الأماكن المخوفة، وجعل فيها الحَمَام الهوادي، ليطلع على الأخبار بسرعة[٧]، وأقطع أمراء الأعراب إقطاعات تُغنيهم عن تهديد الطرق وسلب القوافل[٨].

(1) النجوم الزاهرة (٦/ ٧١).

(2) النجوم الزاهرة (٦/ ٧١).

(3) وفيات الأعيان (٢/ ٣٢٨). وقلعة جعبر تقع على الفرات قرب الرقة وصفين (معجم البلدان ١٤٢/٢)

(4) وفيات الأعيان (٢/ ٣٢٨).

(5) زبدة الحلب (٢/ ٤٧٥).

(6) الروضتين (١/ ٢١).

(7) البداية والنهاية (١٢/ ٣٠٠).

(8) الروضتين (١/ ٢١).

وبعد ذلك اتخذ دمشق عاصمة ثانية له مع حلب، بعدما فتحها عام (٥٤٩هـ(، فأصلح أحوالها جميعها، كما فعل بحلب وجميع المدن التي فتحها، لم يمنعه من ذلك حروبه الضارية المستمرة مع الفرنجة[١]، ولا اتساع ملكه الذي امتد ليضم الشام ومصر والحجاز واليمن[٢]، ولقد ذكر ذلك الاتساع العماد الكاتب (٥١٩– ٥٩٧هـ/ ١١٢٥– ١٢٠١م) بقوله[٣]:

دانَتْ لكَ الدُّنيا فقاصِيها إذا حقَّقتهُ لنفَاذِ أمْرِكَ دانِ
فمن العراق إلى الشآم إلى ذرى مصرٍ إلى قوص إلى أسوانِ
لم تلهُ عن باقي البلاد وإنما ألهاك فرض الغزو عن همذانِ

لم يكن نور الدين محمود رجلاً عسكريًّا فقط، وإنما كان فضلاً عن ذلك مثقفًا حسن الخط كثير المطالعة[٤]، فقيهًا متسامحًا غير متعصب، تعلّم الحديث النبوي الشريف، وعلّمه طلبًا للأجر، مقتديًا بالسنة النبوية[٥]، محافظًا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة للقرآن الكريم، مُحبًّا لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصدًا في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، لم تُسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضا، صموتًا وقورًا، لم يكن بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز مثله في العدل والإنصاف والزهد[٦]، وكان كثير القيام في الليل مصلِّيًا مبتهلاً داعيًا متضرعًا في

(1) أعلام النبلاء (٢/ ٦٢).
(2) زبدة الحلب (٢/ ٥١٠).
(3) خريدة القصر، بداية قسم شعراء الشام (٦١).
(4) البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٧).
(5) الروضتين (١/ ١٠).
(6) البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٨).

أموره كلها[١]. قال عنه الفرنج: إن له مع الله سرًّا، فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا، وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يديه إلى الله ويدعوه، فيستجيب له، ويعطيه سؤله فيظفر علينا[٢]. لقد خصَّص أوقاته كلها لمصالح الناس ، وإظهار شعار الإسلام، والتمكين لقاعدة الدين، حتى إن بلاد الشام صارت في زمنه مقرًّا للعلماء والفقهاء والصوفية، إذ بنى لهم الكثير من المدارس والجوامع والربط والخانقاهات[٣]، وأنشأ أيضًا مدارس الأيتام والمشافي التي غدت مدارس للطب[٤]، كما كان نور الدين أول من بنى دارًا للحديث النبوي في تاريخ الإسلام[٥]. أما مجلسه فقد تميّز عن مجالس غيره من الملوك بأنه كان مجلسًا لا يُذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة في أمر الجهاد[٦].

كان نور الدين محمود ملكًا عادلاً زاهدًا عابدًا ورعًا، مستمسكًا بالشريعة، مائلاً إلى أهل الخير، مجاهدًا في سبيل الله كثير الصدقات[٧]. ومن مزاياه الكثيرة أنه أول من ابتنى دارًا للعدل، كان يجلس فيها مرات عدة كل أسبوع، ويحضر معه القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، لا يحجبه فيها عن الناس جميعًا حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، وكان يكلم الناس، ويستفهم منهم، ويخاطبهم بنفسه، فيكشف الظالم،

(1) المصدر السابق (١٢/ ٢٩٩).
(2) الروضتين (١/ ٣٤).
(3) أعلام النبلاء (٢/ ٦٢).
(4) الروضتين (١/ ٢٠-٢١).
(5) المصدر نفسه (١/ ٢٣).
(6) المصدر نفسه (١/ ٣٤).
(7) أعلام النبلاء (٢/ ٦٢).

وينصف المظلوم [١].

كما كان يحترم الفقهاء والمتصوفة، ويقوم لهم، ويمشي لهم خطوات، ويقعدهم معه على سجادته في وقار وسكون، ويكاتبهم بخط يده[٢]، في الوقت الذي كان لا يتجاسر فيه أحد من الأمراء أن يقعد بين يديه إلا بإذنه، لشدة هيبته[٣]، ووقاره وضبطه ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها [٤]، مع أنه كان لا يُريق دمًا ولا يبالغ في عقوبة[٥].

وكان نور الدين شجاعًا حسن الرأي صابرًا في الحرب، أعرف الناسِ بأمور الأجناد وأحوالهم، لم ير الناس على ظهر الفرس أحسن منه، يباشر القتال بنفسه، ثابت القدم حسن الرمي صليب الرأي، يتقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة سائلاً الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير[٦]، وكان كثيرًا ما يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة فلم أحظَ بها[٧]، قال له يومًا قطب الدين النيسابوري[٨]: بالله لا تخاطر بنفسك، فإنك لو قُتلت، قُتل جميع من معك،

(1) البداية والنهاية (١٢/ ٢٩٩– ٣٠٠).

(2) أعلام النبلاء (٢/ ٦٢).

(3) البداية والنهاية (١٢/ ٣٠١).

(4) الروضتين (١/٢٣).

(5) المصدر نفسه (١/ ١٨).

(6) المصدر نفسه (١/ ١٠).

(7) البداية والنهاية (١٢/ ٣٠٠).

(8) مسعود بن محمد، فقيه شافعي، ولد في نيسابور عام ٥٠٥هـ، وتعلم فيها وفي مرو، ثم درس بالمدرسة النظامية في نيسابور، ووعظ وعلَّم أيضًا في بغداد وحلب، ثم استقر في دمشق، وبها توفي عام ٥٧٨هـ.)وفيات الأعيان ٥/ ١٩٦).

وأُخذت البلاد، وفسد المسلمون. فأنكر نور الدين عليه ذلك قائلاً: يا قطب الدين، من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الله؟ ومن هو محمود؟ فبكى من كان حاضرًا [١].

وأما في أوقات السِّلم، وكانت قليلة قصيرة، فلم يكن يركن للكسل والراحة والدعة، وإنما كان يقضيه مع جيشه في رياضة عنيفة مفيدة نافعة للفرسان والخيل معًا لياقةً ونشاطًا وحيوية، وهي اللعب بالكرة على الجياد، وكان بارعًا فيها جدًّا كبراعته في ساح الجهاد، ولقد عاتبه عليها أحد الصالحين لأنه عدَّها لهوًا لسذاجته وبساطته، فأجابه نور الدين: إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بها تمرين الخيل على الكرِّ والفرِّ وتعليمها ذلك. ونحن لا نترك الجهاد[٢].

هكذا كان نور الدين يقضي أوقاته في حربه وسلمه، إلى أن أسلم روحه إلى خالقها عام (٥٦٩هـ(في دمشق، بعد عمر امتدَّ ثمانية وخمسين عامًا، لم يُضِع منه في سلمه وحربه، وليله ونهاره، وحلِّه وترحاله، لحظة واحدة في غير مرضاة الله تعالى، وخاصة في مدة سلطنته التي دامت ثمانية وعشرين عامًا وستة أشهر[٣]. لقد كانت مدّة متميزة مباركة ساطعة في التاريخ العربي الإسلامي، استطاع فيها أن يوحِّد الشام ومصر واليمن والحجاز وأن يمهِّد الطريق أمام صلاح الدين الأيوبي، الذي سار على خطاه، لفتح القدس واسترجاعها وطرد الفرنجة منها إلى بلادهم التي أتوا منها.

(1) البداية والنهاية (١٢/ ٣٠٠).

(2) المصدر نفسه (١٢/ ٢٩٨).

(3) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٢).

كان نور الدين محمود زاهدًا في كل شيء من دنياه، على الرغم من انتصاراته وفتوحاته وملكه الذي اتسع حتى امتد من العراق إلى برقة. وزهده هذا جعله زاهدًا أيضًا في الشعر والشعراء، مثل الخليفة الراشد الخامس عمر ابن عبد العزيز[١]، قليل الابتهاج بهما إلا بالحق[٢]، ولكن مع هذا فإن الشعر لم يزهد به، بل كان به حفيًّا في حله وترحاله، وحربه وسلمه، وانتصاره وخسارته، وصحته وسقمه، وفرحه وترحه، وخلواته ومجالسه، وفي مراسلاته المختلفة. وكان نور الدين يعقد له المجالس، ويسمعه من الشعراء، ويستنشدهم، ويطلب منهم أن يصفوا وقائعه، وأن ينظموا على لسانه شعرًا في الجهاد. ولا غرو في ذلك، فالشعر آنذاك كان له دوره الهام الذي قام به خير قيام، كما كان له فرسانه الذين رافقوا فرسان السيف والسياسة في حركاتهم وسكناتهم، يؤدون دورهم استثارة للهمم وتحريضًا ومواساة وتشجيعًا. لذلك قيل في نور الدين – على زهده – شعر كثير، قاله أكبر شعراء عصره، حاولوا فيه أن يوفّوه حقه، ولكن أنّى لهم ذلك، فقد كانت أوصافه العظمى وأعماله الكبرى أكبر من أشعارهم وأعظم[٣].

كان الشعر مع نور الدين في حروبه جميعها يقوم بوظيفته خير أداء، وصفًا للمعارك وتأريخًا لها ورفعًا للروح المعنوية وتحريضًا للأبطال وإخافة للأعداء وإثارة للهمم وحشدًا للقوى وتهنئة ومدحًا، ومما قاله الشعر في معاركه قول ابن منير الطرابلسي (٤٧٣–٥٤٨هـ/١٠٨٠–١١٥٣م) في استعادته مدينة (الرها) من الفرنجة وملكهم جوسلين عام (٥٤١هـ(، تلك المدينة الهامة التي كان أبوه

(1) الروضتين (٢/ ٥٨٤).

(2) المصدر نفسه (٢/ ٥٨٨).

(3) المصدر نفسه (١/ ٤٤).

عماد الدين زنكي قد حررها منهم قبل عامين، وكانت أول إمارة صليبية حررها المسلمون في بلادنا[١]:

تلك بكْرُ الفتوحِ فالشامُ منها شامُهُ والعراقُ بَعدُ عراقُهْ

واستنجد به معين الدين أُنَر[٢] من دمشق، ليساعده في قمع تمرد قام به (التونتاش) غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي[٣]، في صرخد[٤]، وبُصرى[٥]، مستعينًا بالفرنجة، فأنجده نور الدين محمود عام (٥٤٢هـ(بنفسه وجيشه الذي لم يُشاهد أحسن منه هيئة وعُدة، وكان نصرًا مؤزرًا، قال فيه ابن منير الطرابلسي قصيدة، منها[٦]:

سل بصيرًا كم أعتقت يوم بُصرى مِنْ إسار الموتِ الزؤام عتاقُه

ولعل من أهم انتصارات نور الدين التي تغنَّى بها الشعراء معركة (إنِّب)[٧]، عام ٥٤٤هـ، قال ابن الأثير[٨]: سار نور الدين إلى حصن حارم[١]، شمال

(1) المصدر نفسه (١/ ١٢٧).

(2) كان أتابك مجير الدين أبق بدمشق زمن البوريين عام (٥٣٤هـ(، ثم ارتفع شأنه، واتفق مع نور الدين محمود، ثم توفي في دمشق عام (٥٤٤هـ(.

(3) حاكم صرخد وبصرى. (تاريخ دمشق لابن القلانسي ٣٩٨).

(4) بلد من أعمال دمشق آنذاك. (معجم البلدان ٣/ ٤٠١).

(5) مدينة معروفة بالشام من أعمال حوران. (معجم البلدان ١/٤٤١).

(6) الروضتين (١/ ١٣١).

(7)حصن من أعمال أعزاز شمال حلب. (معجم البلدان ١/٢٥٨).

(8) عز الدين علي بن محمد (٥٥٥-٦٣٠هـ(المؤرخ في كتابه (تاريخ أتابكة الموصل، أو الباهر في تاريخ أتابكة الموصل ص (١٧٧-١٧٨). (نقلاً عن الروضتين ١/١٥٢).

حارم[١]، شمال حلب، وهو للفرنج، فحاصره، وخرَّب بعضه، ونهب سواده، ثم رحل عنه إلى حصن (إنّب) فحاصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية، وساروا إليه ليرحّلوه عن (إنّب)، فلم يرحل، بل لقيهم، وتصافّ الفريقان، واقتتلوا، وصبروا، وظهر من نور الدين، من الشجاعة والصبر في الحرب، ما تعجب منه الناس، وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقَتل المسلمون منهم خلقًا كثيرًا، وفيمن قتلوه البرنس صاحب أنطاكية، وكان من عتاة الفرنج وذوي التقدم فيهم والمال. ومن هؤلاء الشعراء الذين أشادوا بهذا النصر القيسراني (٤٧٨-٥٤٨هـ/ ١٠٨٥-١١٥٣م) الذي قال قصيدة استلهمها من بائية أبي تمام الشهيرة أولها[٢]:

هذي العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ[٣] وذي المكارمُ لا ما قالت الكتبُ

وبعدما أشاد الشاعر بعزائم نور الدين ومكارمه وهممه وشجاعته وثبات قلبه، وصف هذه المعركة العظيمة بقوله[٤]:

ضربتَ كبشهم[٥] منها بقاصمة أودى بها الصُلْب وانحطت لها الصُلُبُ

حتى استطارَ شَرارَ الزند قادحُهُ فالحربُ تضَرم والآجالُ تحتطب

والخيل من تحت قتلاها تقرّ لها قوائمٌ خانهنّ الركض والجنب

(1) كانت حصنًا منيعًا بين حلب وأنطاكية، فيها أشجار كثيرة ومياه. (معجم البلدان ٢٥٨/١).

(2) زبدة الحلب (٢/ ٤٧٩).

(3) القُضب: جمع قضيب، وهو: السيف القاطع.

(4) الروضتين (١/ ١٥٣).

(5) قائدهم.

والنقع[١] فوق صقال البِيض[٢] منعقدٌ كما استقل دخان تحته لهبُ
والسيف هامٌ على هامٍ[٣] بمعركة لا البَيض[٤] ذو ذمة فيها ولا اليَلَبُ[٥]
والنبل كالوبل[٦] هطّال وليس له سوى القسيّ وأيدٍ فوقها سحبُ
وللظبا ظَفَرٌ حلوٌ مذاقتُهُ كأنما الضرْبُ فيما بينهم ضَرَبُ[٧]
أنباءُ ملحمةٍ لو أنها ذُكرتْ فيما مضى نَسيتْ أيامها العَرَبُ

وبعد هذا الوصف الدقيق الجميل لهذه الملحمة العظمى التي اشرأبَّ عنقها لتتساوى مع عمورية وغيرها من الانتصارات العربية الكبرى، وصف خيانة الفرنجة لعهودهم، والتي كانت وبالاً عليهم[٨].

خانوا فخانت رماحُ الطعن أيديَهم فاستسلموا وهْي لا نَبْعٌ ولا غَرَبُ[٩]

ثم انتقل القيسراني إلى مدح نور الدين وإخلاصه واحتسابه، وقارنه بغيره من ملوك المسلمين، ونوّه بكثرة انتصاراته وعظمتها، فقال:

---

(1) النقع: غبار الحرب.

(2) البيض: جمع أبيض، وهو السيف.

(3) الهام: الرؤوس.

(4) البيض: جمعة بيضة وهي الخوذة.

(5) اليلب: جلود يخرز بعضها إلى بعض، تلبس على الرؤوس وخاصة في الحرب.

(6) الوبل: المطر الغزير.

(7) الضرب: العسل.

(8) وبال: شرّ.

(9) النبع شجر صلب ينبت في قمم الجبال تُتخذ منه القسي والسهام. والغَرَبُ: شجر لدِنٌ ينبت حول الجداول، تُتخذ منه السهام.

من كان يغزو بلاد الشام مكتسبًا من الملوك فنور الدين محتسبُ
ذو عِزَّةٍ ما سَمَتْ والليلُ معتكرٌ إلا تمزّقَ عن شمس الضحى الحجبُ

ثم وصف القيسراني نهاية المعركة وكثرة أسرى الفرنج على شجاعتهم قائلاً:

من باتت الأُسْدُ أسْرى في سلاسله هل يأسر الغُلْبَ[1] إلا من له الغَلَبُ

إنه إذ وصفهم بالأُسد، فقد أنصفهم، وذكر شجاعتهم أولاً، وأعلى في الوقت نفسه من شجاعة نور الدين وقوته، وانتقل بعد ذلك القيسراني إلى تحريض نور الدين، وحثه على فتح القدس، وتطهير المسجد الأقصى، وهنا يتضح دور الشعر آنذاك في معارك التحرير، فالشاعر – بعامة – لم يعد طالب مالٍ ينافق ويتملق للحصول عليه، وإنما أصبح صاحب قضية، ينطق بالصدق، ويتوسل بالإخلاص، قال مخاطبًا نور الدين[2]:

غضبتَ للدين حتى لم يَفُتْكَ رضا وكان دينُ الهدى مرضاتُهُ الغضبُ
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجَبٍ يوليك أقصى المنى، فالقدس مرتقبُ
وائذن لموجك في تطهير ساحله فإنما أنت بحرٌ لُجُّهُ لجِبُ

حاول القيسراني في ملحمته الطويلة الرائعة هذه أن يعطي نور الدين حقه إنصافًا وتعظيمًا، وكأني به كان يعتقد – وهو على حق – أن انتصار نور الدين هذا يعدل انتصار المعتصم في عمورية، ويتضح هذا إذا علمنا أن انتصار عمورية حدث والمسلمون في أوج قوتهم، على حين كان انتصار نور الدين، والمسلمون في ضعف، قد تجرأ عليهم الفرنج فغزوهم، واحتلُّوا كثيرًا من

(1) الغلب: جمع أغلب، وهو الأسد.
(2) الروضتين (١/ ١٥٤).

بلادهم. لذلك نستطيع أن نتلمس روح أبي تمام في بائيته واضحة جلية في كثير من أبيات قصيدته ومعانيها وألفاظها وتراكيبها. وفضلاً عن هذه القصيدة هناك قصائد أخرى في هذه المعركة، وذلك لأهميتها وعظمتها.

وعلى الرغم من انتصارات نور الدين الكثيرة العظيمة التي ألحَّ عليها الشعراء وصفًا ومدحًا وفرحًا، مثل فتح أفامية وسنجار ورحبة مالك والفرات وحمص وأعزاز وتل باشر ودلوك والجولان وطرطوس وغيرها[1]، مما ذكرته كتب التاريخ، مثل: الروضتين والبداية والنهاية وتاريخ دمشق وبغية الطلب وزبدة الحلب وأعلام النبلاء وتاريخ ابن عساكر وغيرها. أقول برغم ذلك فإني سأقف عند فتح دمشق وما سبقه، لما له من أهمية كبرى في معارك التحرير وطرد الفرنج من البلاد، أهمية جعلت نور الدين ينظر إليه نظرة خاصة، وجعلته يتزوج ابنة صاحب دمشق (معين الدين أنر)، ليكون له عونًا في الجهاد والتحرير، ولكنه يتوفى، ويأتي بعده (مجير الدين آبق)[2]، فيغيِّر الأمور، ويعاضد الفرنج، ويستنصر بهم، وهذا ما اضطر نور الدين إلى حصار دمشق (عام ٥٤٦هـ(حصارًا حازمًا، تُوّج بفتحها، فأكرم أهلها وأمَّنهم، وأظهر فيهم العدل والإحسان، وأزال المكوس (الضرائب)، فأكثروا من الدعاء له وسُرّوا بذلك سرورًا

(1) أفامية وسنجار ورحبة مالك: أماكن معروفة في بلاد الشام.

(2) ملك دمشق، تذبذب بين الصلاح والسوء، وبين نور الدين محمود والفرنج، حاصره نور الدين في دمشق عام ٥٤٩هـ، وأخرجه منها إلى حمص ثم إلى بالس قرب الفرات. (تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨٨، وفيات الأعيان ٢٩٧/١، ١٨٤/٥).

بذلك سرورًا عظيمًا[١]. ولقد ذكر الشعراء ذلك، منهم القيسراني الذي قال[٢]:

ليَهْنِ دمشقًا أنّ كرسيّ مُلْكها حُبي منك صدرًا ضاق عن همّهِ الصدرُ
وأنك، نور الدين، مذْ زرتَ أرضها سمتْ بك حتى انحط عن نَسرها[٣] النسر[٤]

وبعد فتح دمشق حدثت معارك كثيرة بين نور الدين والفرنج، كان أهمها انتصاره عليهم في الملاحة قرب طبرية عام (٥٥٢هـ(انتصارًا عظيمًا بيّنًا، خلّف كثيرًا من الغنائم والأسرى والقتلى، امتلأت بهم طرقات دمشق في يوم مشهود، وقد وصف ذلك أحد الشعراء بقوله[٥]:

ما رأينا فيما تقدّم يومًا كاملَ الحسن غايةً في البهاءِ
مثلَ يوم الفرنج حينَ علَتْهمْ ذلةُ الأسرِ والبلا والفناءِ

وأما مصر فلقد كانت فتح فتوحات نور الدين، وتمَّ له ذلك بعدما كثُرت فيها الاضطرابات، واستعان به كبار رجالاتها، مثل شاور بن مجير وزير العاضد لدين الله آخر حكامها الفاطميين الذي أتى دمشق مستنجدًا بنور الدين على ضرغام بن سوار بعدما سلبه وزارة مصر، فأنجده نور الدين بجيش كان قائده

(1) البداية والنهاية (١٢/٢٤٩).
(2) خريدة القصر، قسم شعراء الشام (١/١٥٧) وما بعدها.
(3) نسر دمشق: اسم يطلقه أهلها على القبة الرصاصية العظمى للجامع الأموي وما حولها من قباب (دمشق في عصر المماليك، نقولا زيادة ٧٨).
(4) النّسر: مجموعة من النجوم، أو الطائر المعروف.
(5) تاريخ دمشق (٥٢٤).

أسد الدين شيركوه[١]، عام (٥٥٨هـ(، استطاع أن يستعيد له الوزارة، ويرتب له أمور مصر وأحوالها[٢]. ولكن شاور غدر بنور الدين واستعان بالفرنج، فأرسل نور الدين شيركوه ثانية إلى مصر عام (٥٦٢هـ([٣]، خوفًا من سقوطها بيد الفرنج الذين استعان بهم شاور، ولكن شيركوه عاد إلى الشام بعدما اتفق مع الفرنجة على أن يعودوا عنها أيضًا[٤]. وفي عام (٥٦٤هـ(استجاب نور الدين لاستنجاد العاضد الفاطمي[٥]، حاكم مصر بعدما أرسل إليه شعور نسائه مستغيثًا، فأغاثه بأن أرسل شيركوه ثالثة إلى مصر، فدخلها، وانتصر على الفرنج، وقتل شاور، وتولى الوزارة بدلاً منه، ولكنه ما لبث أن توفي بعد مدّةٍ قصيرة فتولاها بعده صلاح الدين[٦] ابن أخيه[٧]. ولقد هنأ الشعراء نور الدين على فتح مصر، منهم الحافظ ابن عساكر (٤٩٩-٥٧١هـ/١١٠٥-١١٧٦م)، الذي حرَّضه على فتح القدس ومتابعة الجهاد، قال [٨]:

(1) عمّ صلاح الدين الأيوبي، من أعظم قادة نور الدين محمود، تَسَلَّم وزارة مصر شهرين تقريبًا، ثم توفي عام ٥٦٤هـ، فَتَسَلَّمها بعده صلاح الدين. (وفيات الأعيان ٢/ ٤٧٩).

(2) النوادر السلطانية (٢٩).

(3) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٧٣).

(4) النوادر السلطانيية (٣٠).

(5) عبد الله بن يوسف، آخر الحكام الفاطميين في مصر، توفي عام ٥٦٧هـ)وفيات الأعيان ٣/ ١٠٩).

(6) أي صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ(محرر القدس وبطل الحروب الصليبية الأشهر (انظر كتاب النوادر السلطانية أو سيرة صلاح الدين لابن شداد).

(7) المصدر نفسه (٣٢- ٣٣).

(8) خريدة القصر، قسم شعراء الشام (١/ ٢٧٧).

وطهِّرِ المسجد الأقصى وحوزتَهُ من النجاسات والإشراك والصلبِ

ومنهم العماد الكاتب، الذي مدحه بأنه مالك الأمم، وبشرَّه بنصر الله، وأشاد بعدله الذي أسس عليه ملكه، وبفعله للخير وبعزمه ونجدته لمصر، وهيبته التي أخافت الأعداء، كما حرَّضه على متابعة الجهاد وتطهير القدس بعدما وحّد مصر والشام، قال [1]:

بملك مصر أُهنِّي مالكَ الأممِ فاسعدْ وأبشرْ بنصر الله عن أَمَمِ
أضحى بعدلِكَ شَمْلُ المُلْكِ ملتئمًا وهل بعدلِكَ شيءٌ غيرُ ملتئم
اغْزُ الفرنج فهذا وقت غزوهم واحْطمْ جموعهمُ بالذابل الحَطِم
وطهّرِ القدس من رجس الصليب وثبْ على البغاث وُثوبَ الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نُظما في عقد عزٍّ من الإسلام منتظم

ومثلما رأينا الشعر في انتصارات نور الدين كلها، نراه معه في خسارته مع أعدائه، وكانت نادرة جدًا، استطاع أن يحولها إلى انتصارات بفضل شجاعته وحكمته. ففي عام ٥٥٨هـ دخل نور الدين في الأراضي التي احتلها الفرنج لينازل طرابلس. فبينما هو وجنده في خيامهم وسط النهار قرب حمص، فاجأهم الفرنج على حين غرة، فانهزم جند نور الدين بعدما قُتل منهم من قُتل، وأُسر منهم من أُسر. وتراجع نور الدين إلى ظاهر حمص، فأحضر منها ما فيها من الخيام، ونصبها على بحيرة (قدس)[2]، التي تبعد عن مكان الواقعة أربعة فراسخ فقط، وظن الناس أنه لن يقف دون حلب، ولكنه كان أشجع

(1) الروضتين (٢/ ٤٤٣-٤٤٥).

(2) هي بحيرة قطينة الواقعة قرب حمص.

من ذلك وأقوى عزمًا، فقال: (والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري)، وأرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام، وغيرها. فلما رأى الفرنج منه ذلك طلبوا الهدنة، فلم يجبهم إلى ذلك. فقال ابن الدهان الموصلي (٥٢٢-٥٨١هـ/ ١١٢٨-١١٨٥م)، المهذَّب عبد الله بن أسعد نزيل حمص قصيدة، يصف ذلك ويمدحه، ويفنِّد انتصار الفرنج بالخداع والمفاجأة، ويقلل من شأنه وقيمته، ويقارنه بيوم حنين الذي بدأ خسارة وانتهى نصرًا للرسول، ولمن ثبت معه من المؤمنين. كل ذلك ليرفع الروح المعنوية لدى نور الدين وجيشه، ثم هدَّد الفرنج وتوعدهم بنور الدين الذي وقف متحديًا الفرنج بعد هزيمة جيشه قربهم، فكان وحده جيشًا عرمرمًا ثابتًا بطلاً تخرُّ له الليوث سجَّدًا، ثم ذكَّر جيش نور الدين بأن ثبات قائدهم هو الذي أنقذهم من القتل والأسر، وسأل الله له العون والنصر، فقال[1]:

وما يعيبك ما نالوه مِنْ سلَبٍ ... بالختل، قد تُؤسر الآسادُ بالحيلِ

هل آخِذُ الخيل قد أردى فوارسها ... مثالُ آخِذِها في الشكل[2] والطِّوَلِ[3]

أم سالب الرمح مركوزًا، كسالبه ... والحرب دائرة من كفّ معتقِل

لهم بيوم حنين أسوةٌ وهمُ ... خَيرُ الأنامِ وفيهم خاتمُ الرُّسل

كم قد تجلت بنور الدين من ظُلَمٍ ... للظُّلمِ وانجابَ للإضلال من ظلل

فقام فردًا وقد ولّت جحافله ... فكان مِن نفسه في جحفل زجِل[4]

(1) خريدة القصر، قسم شعراء الشام (٢/ ٢٨٩) وما بعدها.

(2) الشكل: قيد تشدُّ به قوائم الخيل.

(3) الطّول: حبل طويل تُربط به الخيل يمكِّنها من الرعي.

(4) له جلبة وضجيج لكثرة جنده.

تذكّرنا قصيدة ابن الدهان هذه في اعتذاره عن نور الدين ومدحه بعينية المتنبي التي اعتذر بها عن سيف الدولة في الوقعة التي نُكب فيها المسلمون بالقرب من الحدث[١]، ومطلعها[٢]:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وكذلك تحدَّث الشعر أيضًا عن صلحه مع أعدائه، عندما كان يلجأ إليه لمصلحة المسلمين، مثلما فعل مع رجالات دمشق عام (٥٤٥هـ)، وصوَّر ذلك القيسراني خير تصوير، إذ شبهه بالسيف حدًا وصفحًا، وبأنه قد أسكر الرماح بدماء الأعداء كثيرًا، فحُقَّ لها أن تصحو منها قليلاً، قال[٣]:

لك الله، إن حاربت فالنصر والفتح وإن شئت صلحًا عُدّ من حزمك الصلحُ

وذكر الشعر أيضًا لنور الدين جهادًا من نوع خاص، يعرفه التصوف الذي كان آنذاك منتشرًا بكثرة، وهو جهاد النفس الذي يُعد أصعب أنواع الجهاد، حتى وُصف بالجهاد الأكبر، وهو مقدمة لابد منها لجهاد العدو، وهو الجهاد الأصغر، ونجد ذلك في قول القيسراني الذي وصفه بأنه ذو الجهادين، ورسم له صورة الكمال الجامع للعدل وسلوك المحجة البيضاء وحسن السيرة والجود والصلاح والشجاعة والولاية والسمو والطهر وحسن الخلق، والرأفة مع الشهامة، والعفاف مع الاقتدار، والسطوة مع الحياء، والجمال مع الجلال، والكمال مع البهاء[٤]:

---

(1) قلعة حصينة على جبل الأحيدب بين ملطية وسُمَيساط. (معجم البلدان ٧٢٧/٢).

(2) ديوان المتنبي (٢٢١/٢).

(3) الروضتين (١/ ١٨٠).

(4) الروضتين (٤٥/١ –٤٦).

ذو الجهادين من عدو ونفس فَهْو طول الحياة في هيجاءِ
أيها الملك الذي ألزم النا س سلوك المحجة البيضاءِ

كما وصف أيضًا ابن قسيم الحموي المسلم بن خضر (..-٥٤١هـ/... - ١١٤٦م) شجاعته ولينه، وسطوته وسكونه، وصفاء جهاده وسمو إيمانه، وملكه للناس ووفاءه، وشرفه وظفره وتأييد الله له، وإعزازه للدين وإهانته للشرك، فقال [١]:

تبدو الشجاعةُ من طلاقة وجهه كالرمح دلَّ على القساوة لينُهُ
ووراء يقظته أناةُ مجرِّب لله سطوة بأسه وسكونه
هذا الذي في الله صَحَّ جهادُهُ هذا الذي بالله صح يقينه

وتحدَّث القيسراني عن زهده وعفَّته، فقال[٢]:

ثنى يده عن الدنيا عفافا ومال بها عن الأموال زهدُ

وحاول العماد الكاتب أن يحيط بشمائله وفضائله أيضًا، فرسم له صورة كاملة، بدأها بالدعاء له أن يدرك ما يشتهيه، وينال كل أمانيه سالِمًا مكرّمًا، يطوف في فلك الهدى متفوقًا على العالمين، وتحدَّث عن عدله الذي جعل الأُسود ترعى مع المها، فلا تعتدي عليها، وعن أيامه الحميدة وملكه وكرمه وهداه وشجاعته وصواب آرائه وحصافته وحصانته وطهره وعبادته وتصوفه، وإخلاصه لله، كما فضَّله على جميع الملوك بجده وزهده وحبه للخير وحسن سياسته للرعية والتزام أوامر الله ونواهيه فيهم، وبرحمة صغيرهم، والرأفة لكبيرهم،

(1) خريدة القصر، قسم شعراء الشام (١/ ٤٧٤- ٤٧٥).
(2) الروضتين (١/ ٨٤).

فلم ييئس منهم فيه أحد، ولم يحرم سائلاً منهم، فأتعب نفسه في الدنيا، حتى ينال راحة آخرته، وبذلك فاق الملوك سماحة وحماسة ونزاهة عن العيوب وحلمًا. إنها صورة شعرية مثالية، لولا أن المؤرخين صدقوها، لقلنا: إنها خيال شاعر، قال العماد[١]:

أدركتَ من أمر الزمان المشتَهى وبلغت من نيل الأماني المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمنًا متكرّمًا بالطبع لا متكرّهًا
لازلت نور الدين في فلك الهدى ذا عزة للعاملين بها البها

وأما سيرة نور الدين، فهي سيرة عطرة، أحيت ذِكر العُمَرَيْنِ عدلاً وشهامة وإخلاصًا وجودًا وذكرًا، قال القيسراني[٢]:

يا سائلي عن نهج سيرته هل غير مفرق هامه الفجر
يا نورَ دينِ الله وابنَ عمادهِ والكوثَرَ ابنَ الكوثرِ ابنِ الكوثرِ

سار نور الدين حتى وصل إلى ما وصل إليه سموًا، وكمالاً على خُطا والده الذي استطاع أن يحقق أول نصر حقيقي على الفرنج، بعدما طردهم من الرها، وقضى على إمارتهم فيها. لذلك ذكره الشعراء كثيرًا في أثناء مدحهم لنور الدين وألحوا في ذلك، مثل ابن منير[٣] :

وهذه العظمة والانتصارات ذكّرت ابن منير بعظماء خلفاء المسلمين فقال[٤]:

وَعلى العواصمِ من دفاعك عاصم ينشي الرشيد وينشر المنصورا[١]

(1) الروضتين (١/ ٣٨١– ٣٨٢)، وانظر خريدة القصر، قسم بداية شعراء الشام (٤٥).
(2) الروضتين (٤٦/١).
(3) الروضتين (١٩٦/١).
(4) الروضتين (١٢٧/١).

وجعلت القيسراني يتفاءل باسترجاع القدس، لأنه عدّها إرهاصات لذلك، قال[٢]:

فإن يكُ فتحُ الرُّها لجة فساحلها القدس والساحل

كما دعا له ابن منير بطول البقاء، حتى يتم استرجاع القدس قائلاً[٣]:

أبقاك للدنيا وللدين معًا خلاّك في ليلهما نيّرا
حتى نرى عيسى من القدس قد لجا إلى سيفك مستنصرًا

وصوّر القيسراني محبة الناس الصادقة له، وكيف يفدونه بآبائهم وأمهاتهم في قوله[٤]:

ولعمري لو استطاعَ فَداك الـ ـقوم بالأمهات والآباء

كل ذلك جعل نور الدين منبع وحي للشعراء تفيض منه معانيهم، وتتفاءل به أشعارهم، قال القيسراني[٥]:

هذا الذي وُلدت له الأفكار وتمخضت فألاً به الأشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة وردت وصفو ضميرها المضمار
وأتت به نذر القوافي برهة إن القوافي وحيها إنذار

وكان نور الدين بهذه الخلال الملائكية أسوة حسنة لجنده، تشبهوا به، كما

(1) هارون الرشيد وأبو جعفر المنصور من أشهر الخلفاء العباسيين وأعظمهم (فوات الوفيات ٤/ ٢٢٥، ٢/٢١٦).

(2) الروضتين (١/ ١٢٧).

(3) المصدر نفسه (١/ ١٤٨-١٤٩).

(4) المصدر نفسه (١/٤٦).

(5) المصدر نفسه (١/١٧٤).

قال القيسراني[١]:

ملك أشبه الملائك فضلاً وشبيهٌ بمالك الأمرِ جُندُهْ

وقد عُني بهم عناية كبيرة، فبلغوا الغاية إيمانًا وكثرة وقوة وعدة، إذا ساروا ملأ الغبار السماء، فتختفي كواكبها، لتظهر كواكب أخرى من سيوف الجند وأسنة رماحه، قال القيسراني[٢]:

في عسكر يخفي كواكبَ ليله نقعًا، فيطلعها القنا الخطارُ

جرار أذيال العجاج وراءه وأمامه، بل جحفل جرارُ

أما الشعب فقد سرى زهد نور الدين إليه، فغدا زاهدًا، لا يفعل إلا الخير، قال أسامة بن منقذ[٣]:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له فكلٌّ على الخيرات منكمشُ

كما رضي الناس عن عيشهم الحميد وحمدوه، قال القيسراني[٤] :

وكيف لا نثني على عيشنا الـ محمود والسلطان محمودُ

كان لنور الدين ومناقبه الجليلة الكثيرة فضل كبير على جميع المدن والبلاد، ولكن فضلها على حلب عاصمته الأولى أعظم وأكبر، حتى غدت وكأنها البيت الحرام حرمة، قال ابن منير[٥]:

ما حلبُ البيضاءُ مذْ صُنْتَها إلا حرامٌ مثلُ أم القرى

---

(1) الروضتين (١/٤٨).

(2) المصدر نفسه (١/١٧٤– ١٧٥).

(3) النجوم الزاهرة (٦/١٠٧)، وخريدة القصر، قسم شعراء الشام (١/ ٥١٦).

(4) النجوم الزاهرة (٥/٢٨١).

(5) الروضتين (١/ ١٤٨).

شيَّدْتَ في معمور أرجائها لكل باغي عمرةٍ مشعرا
فأصبح الشادي إذا ثوَّب الـ ـداعي له هلل أو كبّرا

رصد الشعر أيضًا علاقات نور الدين مع الخلافة العباسية في بغداد التي كان يستظل بها، ويدافع عنها بإخلاص وشجاعة واستماتة، وهذا ما جعل الخليفة العباسي المستضيء بالله راضيًا عنه، يرسل إليه الهدايا والخُلَع شُكرًا لانتصاراته على الفرنجة وتوحيده للبلاد، وقد هنأه على واحدة من تلك الهدايا ابن منير بقصيدة طويلة، منها[1] :

وبرزتَ في لُبْس الخلافة كالهلا ل جلاه في حُلَلِ الدجى التهليلُ

كما طلب نور الدين من العماد أن ينظم قصيدة على لسانه، ليرسلها إلى الخليفة العباسي في بغداد عام ٥٦٩هـ، فضلاً عن رسائله النثرية المتكررة إليه، ليبشره فيها بما حققه من انتصارات للخلافة العباسية، ومن هذه القصيدة أبيات تؤكد ولاءه للخليفة وتبعيته له، وهي[2]:

قد نال عبدك محمود بها ظفرًا مازال يرقبه من قبل مرتبصا
من خوف سطوته أن العدو إذا أمَّ الثغور على أعقابه نكصا

كما ذكر العماد أيضًا في قصيدة أخرى له مرسلة إلى بغداد عودة مصر إلى الخلافة العباسية، ووصف ذلك بأنه فتحٌ بكر مميز، خصّ الله به نور الدين، ومدح الخليفة بأنه نائب الرسول وإمام العصر، لا ينازعه في ذلك منازع، ومدح نور الدين الذي استنار الملك به[3]:

(1) الروضتين (١/ ٢١١- ٢١٢).
(2) المصدر نفسه (٢/ ٥٥٦).
(3) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٥٦).

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصرِ
هو فتحٌ بِكرٌ ودون البرايا خصَّنا الله بافتراع البِكر
واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الهمام الأغر

ومن البديهي أيضًا أن يكون للشعر دوره أيضًا في علاقة نور الدين مع الفاطميين، فهذا الوزير الفاطمي طلائع بن رزيّك (٤٩٥-٥٥٦هـ/١١٠٢-١١٦١م)، يرسل مجموعة من القصائد بوساطة صديقه أسامة بن منقذ (٤٨٨-٥٨٤هـ/ ١٠٥٩-١١٨٨م)، إلى نور الدين، ليسير إيجاد نوع من التحالف بين مصر الفاطمية والشام العباسية على الفرنج. لذلك نستطيع أن نعدَّ هذه القصائد وأمثالها وثائق تاريخية إضافةً إلى قيمتها الأدبية، ومنها قصيدة ميمية[١] طويلة، استحث فيها ابن رزيك نور الدين على متابعة جهاد الفرنجة، أولها[٢]:

ألا هكذا في الله تمضي العزائمُ وتُنضى لدى الحرب السيوف الصوارمُ
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن وتظهر فتورًا إن مضت منك حارم

ومن رسائل ابن رزيك إلى أسامة بن منقذ هذه الأبيات التي تعدِّد بعض مناقب نور الدين[٣]:

والمم بنور الدين واعـ ـلمه بها تيك القضيهْ

(1) تذكرنا بميمية المتنبي، ومطلعها:
على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
(2) الروضتين (١/ ٢٨٩).
(3) الروضتين (١/٢٩١).

فهو الذي مازال تُخ لَص منه أفعالٌ ونيّه
ويبيد جمع الكفر بال بيض الرقاق المشرفيه
فعساه ينهض نهضة يفني بها تلك البقيه

وأجاب أسامة بن منقذ على رسائل ابن رزيك الشعرية بمثيلاتها، أشاد فيها بنور الدين وبسجاياه، ونصحه فيها بالتحالف معه لأنه حامي بلاد الشام من الفرنجة، قال[١]:

واشدد يديك بود نو ر الدين والق به الرجالا
فهو المحامي عن بلا د الشام جمعًا أن تذالا[٢]
ومبيد أملاك الفرنـ ـج وجمعهم حالاً فحالا
ملك يتيه الدهر والدنـ ـيا بدولته اختيالا
جمع الخلال الصالحا ت فلم يدع منها خلالا

لم يترك الشعر نور الدين في حياته الخاصة، كما لازمه في حياته الرسمية العامة، فنجده يهنئه في كل المناسبات السعيدة، مثل شفائه من مرض ألمَّ به عام (٥٥٢هـ)[٣]. وولادة ابن له[٤]، وختانه في العيد[٥]، وشهر رمضان[٦].

(1) الروضتين (١/٢٩٤).
(2) تُذال: تُهان.
(3) تاريخ دمشق (٥٣٥).
(4) الروضتين (١/٢٢١).
(5) خريدة القصر، بداية قسم شعراء الشام (٦٥– ٦٦).
(6) الروضتين (١/١٤٧–١٤٨).

ومن الطبيعي أيضًا أن يشارك الشعر في المناسبات الحزينة، فنجده يعزي نور الدين في وفاة أخيه الأكبر سيف الدين غازي صاحب الموصل عام (٥٤٤هـ)، ويعدد سجايا الفقيد، ويمدحه، ويفدّيه، ويدعو له بالبقاء، ويمدحه، ويمدح أسرته جميعها، قال ابن منير[١]:

بقيت معزىً من الهالكين تُوقّى الردى وتوفّى الأجورا
ولو أنصف الدهر موتاكم لخطَّ لهم في السماء قبورا

وهكذا اغتنم الشعر جميع المناسبات السعيدة والحزينة، الرسمية والخاصة، ليعبر عن وجوده ودوره في الحياة آنذاك، وهو دور حيوي وضروري جدًا .

كان نور الدين محمود حاضرًا وبقوة ووضوح في الشعر الذي توجَّه إليه مباشرة، كما كان أيضًا حاضرًا وبوضوح في قصائد بعض الشعراء التي توجهوا بها إلى غيره، مثل القصائد المتبادلة بين ابن رزيك وأسامة بن منقذ، كما مرّ بنا من قبل. وكان نور الدين أيضًا يفيد من الشعر ومزاياه، فيطلب من بعض شعرائه أن ينظم له بعض رسائله شعرًا، مثل القصيدة التي نظمها العماد الكاتب على لسانه، وأرسلها إلى الخليفة العباسي، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل .

وكذلك كان نور الدين أيضًا يجلس للشعراء لينشدوه قصائدهم[٢]، ويطلب منهم أحيانًا أن يصفوا بعض حروبه، مثل قوله للعماد الكاتب: كيف تصف ما جرى، أي بينه وبين الفرنج عام ٥٦٨هـ، وكان العماد معه على الخيل،

(1) الروضتين (١/١٦٩).
(2) المصدر نفسه (١/ ١٥٢).

الخيل، فقال العماد قصيدة طويلة، منها [١]:

عُقدتْ بنصرك رايةُ الإيمان وبدتْ لعصرك آيةُ الإحسانِ
يا غالب الغلْب الملوك وصائد الـ ـصيد الليوث، وفارس الفرسان
كم وقعةٍ لك في الفرنج حديثُها قد سار في الآفاق والبلدان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم والرأي قبل شجاعة الشجعان[٢]

وفضلاً عما تقدم استنشد نور الدين الشعراء أشعارهم أحيانًا في الحماسة وغيرها من موضوعات الشعر[٣]، وهذا على فهمه للشعر وتذوقه له واستحسانه لجميله وإدراكه لدوره في النفوس آنذاك .

ولم يقف الأمر بين نور الدين والشعر عند هذا الحد، وإنما تجاوزه عندما طلب من العماد الكاتب أن ينظم له وعلى لسانه أبياتًا في الجهاد ليتغنى ويتقوى بها، هو وجنده، ولتثير فيهم الحماسة والهمة. قال العماد: وسألني نور الدين أن أعمل (دوبيتيات) في معنى الجهاد على لسانه فقلت[٤]:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرب والراحة في سواه عندي تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب والعيش بلا جدٍّ جهادٍ لعب

وقلت أيضًا[٥] :

لا راحة في العيش سوى أن أغزو سيفي طربًا إلى الطلى[١] يهتزُّ

(1) خريدة القصر، بداية قسم شعراء الشام (٥٤) وما بعدها.
(2) صدر بيت للمتنبي، عجزه: هو أول وهي المحل الثاني (ديوان المتنبي ٤/ ١٧٤).
(3) الروضتين (٢/ ٥٤٣).
(4) خريدة القصر، بداية قسم شعراء الشام (٤٢).
(5) المصدر السابق (٤٢– ٤٣).

في ذُلِّ ذوي الكفر يكون العزُّ والقدرة في غير جهاد عجزُ

وأخيرًا كان الشعر مع نور الدين في موته عام (٥٦٩هـ(بدمشق، كما كان معه في حيواته التي امتدت ثمانية وخمسين عامًا، قضاها في جهاد الفرنجة وتحرير البلاد من استعمارهم وتوحيدها، فبكاه الشعر بصدق، كما بكته قلوب الناس وعيونهم بصدق أيضًا، ومن الشعراء الذين رثوه العماد الكاتب. ومما قاله في ذلك[٢].

عجبت من الموت لما أتى إلى ملك في سجايا مَلَكْ
وكيف ثوى الفلك المستدي ـر في الأرض والأرض وسْط الفلك

واللافت للنظر أن الشعر الذي قيل في رثائه لا يتناسب مع جلال الحدث، ولا يمكن أن يُقارن بالشعر الذي قيل في أثناء حياته مدحًا وتهنئة وحماسة وغير ذلك، من حيث الجودة والكثرة، والمضمون والشكل. ونستطيع أن نعلِّل ضعفه وقلته إلى أمور عدة، لعل أهمها حالة البلبلة التي سببتها وفاته، وعدم وجود وريث قوي كبير، يَحِلُّ محله، ويملأ الفراغ الذي خلّفه رحيله إلى جوار ربه، ويَتَصَدَّر مجلس العزاء ليسمع المراثي، وذلك لأن الشاعر بحاجة ماسة إلى المستمع الجيد حتى يقول الشعر الجيد بعامة. ومع ذلك يبقى هذا تعليلاً لا تبريرًا.

إن ما تقدم من شعر في نور الدين محمود، يدل على حفاوة شديدة منه بالشعر، لإدراكه قيمة الشعر آنذاك ودوره الإعلامي الهام في الصديق قبل العدو ذلك العصر، وهذه الحفاوة جعلته حاضرًا فيه هذا الحضور المتميز على

(1) الطّلى: ج طلاة: العنق أو صفحته.

(2) البداية والنهاية (١٢/ ٣٠٤).

الرغم مما وصف به من قلة ابتهاجه بالمدح، كما مرّ من قبل. ولقد قال هذا الشعر أكبر شعراء عصره .

واستطاع هؤلاء الشعراء أن يسايروا بأشعارهم أحداث العصر بدقة وأمانة على كثرتها وتتابعها، وبذلك اتسمت إلى جانب قيمتها الأدبية بالواقعية، وصارت وثيقة تاريخية، زادت كتابات المؤرخين غنى وثراء، كما استطاعوا أن يقوموا بواجبهم خير قيام، لأنهم جعلوا شعرهم ملتزمًا قضايا الأمة المصيرية معبِّرًا عن آلامها وآمالها، يؤدي دوره الإعلامي في التحريض وإثارة الروح المعنوية والتذكير بأعلام التاريخ العربي العظام وربط الناس بهم، وفي الحث على الجهاد والسير الحثيث لتوحيد البلاد وحشد طاقاتها لطرد الفرنجة منها، ومن القدس والأقصى اللذين كانا دائمًا حاضرين في قلب نور الدين وجنده وشعبه، يذكرهم بها المنبر الذي أمر نور الدين أكبر النجارين في زمنه (الأختيريني) بصنعه، لينقله إلى المسجد الأقصى عند تحريره. وتميَّز الشعر أيضًا بالعاطفة الصادقة الوهاجة التي كان لها تأثيرها في ساح الجهاد، ونشير هنا إلى أناشيد الجهاد التي طلب نور الدين من العماد أن ينظمها على لسانه – كما مر من قبل – وكانت ظاهرة جديدة في الأدب العربي لها دلالاتها. لذلك كان أسلوب الشعر يميل حينًا إلى اللهجة الخطابية الجزلة، وحينًا إلى السهولة والبساطة، كما استحضر في كثير من الأحيان معاني كبار شعراء العربية مثل أبي تمام والمتنبي وصورَهم وتراكيبَهم.

استطاع هذا الشعر أن يرسم صورة واضحة مشرقة لنور الدين، لتكون مثالاً يحتذى لما ينبغي أن يكون عليه القائد والحاكم، ولاشك في أن صلاح الدين الأيوبي نجح في الإفادة منه والوصول إليه، وأن يكمل البناء الذي بدأه سلفه

نور الدين.

ومع ذلك كله هل استطاع هذا الشعر أن يؤدي حق نور الدين الكامل كما أدَّاه في سيف الدولة ؟ إنه لم يستطع، وأنّى له أن يسمو إلى القمة التي وصل إليها نور الدين. ويكفينا حتى ندرك سمو تلك القمة التي وصل إليها أن نذكر ما فعله قبيل انتصاره في معركة حارم، إنه ترجَّل من على حصانه، وسجد لله ومرَّغ وجهه بالتراب، وتضرع داعيًا: اللهم انصر دينك، ولا تنصر محمودًا، من هو الكلب محمود حتى تنصره[1] ، يقصد نفسه. إنه كان بحاجة إلى شاعر عملاق، مثل أبي تمام أو البحتري أو المتنبي ليوفِّيه حقه. ولكن يكفي هذا الشعر الذي قيل فيه شرفًا وفخرًا أنه حاول ذلك، وبذل جهده كله، ونجح في كثير من الأحيان أن يقترب من قمة عصره الأدبية وقيمه الفنية كما نجح سلفه من الوصول إلى قمة عصره الفنية السامية، وإن كان ثَمَّةَ فرق بين القمتين.

(1) أعلام النبلاء (٢/ ٤٣).

المصادر والمراجع

١- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الطباخ، دار القلم العربي، حلب ١٩٨٨م.

٢- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

٣- تاريخ دمشق، ابن القلانسي، أبو يعلى، ت. سهيل زكار، دار حسان، دمشق ١٩٨٣م.

٤- خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصفهاني الكاتب، قسم شعراء الشام، ت: شكري فيصل، مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٥٥- ١٩٥٩- ١٩٦٨، قسم شعراء مصر، ت: أمين وضيف وعباس، لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٥١م.

٥- ديوان المتنبي، شرح العكبري، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ .

٦- الروضتين في أخبار الدولتين ، أبو شامة، ت: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦- ١٩٦٢م.

٧- زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم، ت: سهيل زكار، دمشق، دار الكاتب العربي ١٩٩٧م.

٨- سيرة صلاح الدين، ابن شداد، القاهرة، شركة طبع الكتب العربية ١٣١٧هـ.

٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٣م.

١٠- هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري، السيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوي، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٧٠م.

١١- وفيات الأعيان، ابن خلكان، ت. إحسان عباس، بيروت، دار صادر ١٩٧٧م.